

الدبلوماسية النبوية
في صلح الحديبية
رؤية تأصيلية تطبيقية

أ. عباس شريفة

مقدمة

تعتبر السيرة النبوية مادة ثرية لاستيعاب عمق الدبلوماسية النبوية في إدارة المصالح الدقيقة وصناعة القرار السياسي الصائب وإنجاز المفاوضات السياسية باحترافية واقتدار، في الوقت الذي بدا فيه بعض الباحثين يوازن السياسة الشرعية من خلال المحددات العقدية والفقهية التي تقسم المجتمعات الإنسانية إلى كافر ومسلم كطرفي صراع أبدي أزلي، وتحاول تنزيل الأحكام الواردة في كتب السياسة الشرعية التي جاءت في سياق زمني مختلف على كل زمان ومكان، وكأنه أحكام تتسم بالثبات والديمومة، دون إدراك لتفاعل النص مع الوقع المتبدل.

في السيرة النبوية نلاحظ كيف كان التمييز الواضح في التحالفات بين التحالف السياسي حتى مع غير المسلمين وعدم الاعتراف بانتساب البعض لدولة المسلمين لمجرد الإعلان عن الدخول في الإسلام، بدون أن يتبع ذلك بيعة سياسية واضحة تحدد العلاقة السياسية بين الأطراف وبين

العقد الإيماني الذي يدخل المنتسبين للإسلام في دائرة الملة، لكن دون أن يترتب على ذلك أي أثر سياسي.

في هذه الورقة اعتمدنا على عدد من المقدمات الأصولية لفهم ماهية الفعل النبوي، وتحديد موضع الاستشهاد والاستنباط من مادة السيرة النبوية في موضوع مهم من حوادث السيرة النبوية، وهو حادثة «صلح الحديبية» وما ساقبها من إدارة حكيمة للمفاوضات، ثم ما لحقها من ملابسات في تنفيذ بنودها ونقض شروطها من قبل قريش، وانتهائها إلى فتح مكة والتي عالجها القرآن الكريم في سورة كاملة هي سورة الفتح.

● منهج البحث (مقدمات تأصيلية لفهم السيرة النبوية)

اعتمدنا على عدد من المقدمات التأصيلية في قراءة حادثة صلح الحديبية.

القاعدة الأولى: التمييز في تصرفات النبي ﷺ، بين التصرفات التبليغية التي مصدرها الوحي، وبين التصرفات السياسية التي مصدرها الاجتهاد.

لقد كان الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُمَيِّزُونَ بين هذه الأنواع من التصرفات النبوية، وكان واضحاً في ذهن الصحابة الكرام: أن ليس كُلُّ ما يتلقونه من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هو وحيي، ومحل اتباع واقتداء.

ومن ذلك قصة الصلح بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين قريش حيث فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن قرار تجنب الحرب وعدم الدخول العسكري لمكة كان بوحي من الله تعالى ولا مجال للاعتراض عليه، أما تفاصيل المفاوضات فكانت اجتهاداً بشرياً منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مما سمح لبعض الصحابة أن يعترض ويدلي برأيه على بعض تفاصيل شروط الصلح.

وفي غزوة الأحزاب والمفاوضات التي جرت بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين سيد غطفان عيينة بن حصن الفزاري يومها^(١)

(١) لمراجعة القصة انظر في كتاب دلائل النبوة للبيهقي، رقم الحديث: (١٣٤٣)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

من هذه الرواية يتبين لنا فقه الصحابة، وكيف استفصلوا عن الأمر قبل إبداء الرأي، هل ما تفعله يا رسول الله دينٌ وحيٌّ من الله، أم أمرٌ تفعله من أجلنا، فلما علموا أن الأمر ليس وحيًا ودينًا واجب الاتباع اجتهدوا وردوا الأمر.

القاعدة الثانية: اعتبار أن السياسة الراشدة هي ما لا يخلف الشرع وهي تجري على قاعدة الاستصحاب وقاعدة الإباحة الأصلية.

كما بين ذلك ابن عقيل الحنبلي مما نقله عنه ابن قيم الجوزية في كتابه إعلام الموقعين عن رب العالمين، ولاستجلاء هذا المعنى نسرد مناظرة جرت بين أبي الوفاء بن عقيل وبين بعض الفقهاء الشافعية كما ينقلها عنهم ابن قيم الجوزية.

فقال ابن عقيل: العمل بالسياسة هو الحزم، ولا يخلو منه إمام.

وقال الآخر: لا سياسة إلا ما وافق الشرع.

فقال ابن عقيل: السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا نزل به وحي.

فإن أردت بقولك: لا سياسة إلا ما وافق الشرع، أي: لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجحده عالم بالسير، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة، وكذلك تحريق علي كرم الله وجهه الزنادقة في الأخاديد، ونفي عمر نصر بن حجاج. ثم يعلق العلامة ابن القيم على ما سبق مؤيداً لما ذهب إليه ابن عقيل، فيقول:

قلت: هذا موضع مزالة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك في معترك صعب، فرط فيه طائفة، فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرؤوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم

طرقاً صحيحة من الطرق التي يعرف بها المحق من المبطل، وعطلوا مع علمهم وعلم الناس بها أنها أدلة حق، ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها، فلما رأى ولاية الأمر ذلك، وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة، فأحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم، فتولد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء ما أحدثوا من أوضاع سياستهم شر طويل، وفساد عريض، وتفاقم الأمر، وتعذر استدراكه.

وأفرط فيه طائفة أخرى، فسوغت منه ما يناقض حكم الله ورسوله، وكلا الطائفتين أتيت من قبل تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله، فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره^(١).

(١) إعلام الموقعين في كلام رب العالمين لابن قيم الجوزية الجزء الثاني ص ٦٩٢ - ٦٩٨.

القاعدة الثالثة: التمييز بين الأحكام التعبدية والمصلحية، وكل ما لم يرد فيه النص بأمر أو نهي فهو من المصالح المرسلة. تشمل الشريعة الإسلامية على نوعين من الأحكام التكليفية، منها ما هو معقول المعنى منوط بعلة، ومنها ما هو غير معقول المعنى لا يناط بعلة مما يطلق عليه أمر تعبدى. وما كان معللاً بعلة فإنه يدور مع علة وجوداً وعدماً، والأصل فيه النظر والاجتهاد؛ للقاعدة الأصولية التي تقول (الحكم يدور مع علة وجوداً وعدماً)^(١).

وما كان غير معلل بعلة فالأصل فيه الاتباع المحض للقاعدة الفقهية التي تقول: (الأصل في العبادات الوقف)، ومن هنا يظهر أسباب اضطراب الفقه السياسي عند البعض في تحليل الحكم التعبدى أو توقيف الحكم المعلل، الأمر الذي يفضى بالمفتى إلى الابتداع، أو أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله تعالى.

(١) راجع شرح القاعدة في كتاب د. مصطفى الزرقا المدخل الفقهي العام.

لذلك يجب على المفتي إذا عرضت عليه المسألة أن يحقق فيها، هل هي تعبدية؟ فلا يقاس عليها غيرها، أم إنها حكم معلل يدور مع علته ويقاس عليه فرع إذا اشترك معه بالعلة.

كمن تعبدوا الله بلون الأعلام وشكلها والكتابة عليها، وجعل ما سواها راية بدعية جاهلية مع أن معنى الراية التي وردت في الحديث هو الغاية من القتال، فلم يتعبدنا الله تعالى بشكل الراية، وإنما بالغاية من القتال.

وكما في اشتراط القرشية في الإمامة العامة، فقد جعلها البعض حكماً تعبدياً، وجعلها ابن خلدون حكماً معللاً بعلة العصبية، وكثير من أحكام السياسة الشرعية هي أحكام معللة، الأصل فيها النظر في علتها ومعقدها والمصلحة المتوخاة منها^(١).

(١) مقدمة ابن خلدون الصّفحة ٢٤١-٢٤٤، تحقيق: خليل شحادة، النّاشر: دار الفكر، بيروت-لبنان، الطّبعة: الثّانية، عام النشر: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

خطة الورقة

تم تقسيم الورقة إلى أربع مباحث رئيسة وخاتمة ونتائج.

المبحث الأول: التمهيد للمفاوضات مع قریش.

المبحث الثاني: إدارة التفاوض والخطاب السياسي.

المبحث الثالث: الرؤية الإستراتيجية النبوية في صلح الحديبية.

المبحث الرابع: فوائد يمكن إسقاطها على العلاقات الدولية

في عصرنا.

الخاتمة والتأج.



المبحث الأول

التمهيد للمفاوضات مع قريش

إن من أوليات الفهم السياسي في إدارة المفاوضات هو البحث عن المصالح المشتركة حتى مع من نختلف معهم في الدين حيث قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية: (ويح قريش! قد أكلتهم الحرب والله، لا تسألني قريش اليوم خطة فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)^(١).

قال ابن القيم: إنَّ المشركين، وأهل البدع والفجور، والبُغاة، والظلمة، إذا طلبوا أمراً يُعْظَمون فيه حرمةً من حُرُمات الله تعالى، أُجيبوا إليه وأعطوه، وأُعينوا عليه، وإنْ مُنَعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرَمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمْنَعون ممَّا سوى ذلك، فكلُّ من التمس المعاونة

(١) صحيح البخاري رقم الحديث (٢٧٣١) المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

على محبوبٍ لله تعالى مُرضٍ له، أُجيبَ إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مَبْغُوضٌ لله أعظمُّ منه، وهذا من أدقِّ المواضع وأصعبها، وأشقَّها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة مَنْ ضاق^(١).

وهذا ينطبق اليوم على كثير من حالة التعاون بين الدول الإسلامية والنظام العالمي في المبادئ التي توافق شريعتنا، من قضايا حقوق الإنسان، والمناداة بالقيم الإنسانية المشتركة التي لا يرفضها الإسلام، ولا يحرم فيها التعاون مع الكفار على تحقيقها، طالما أنَّ المقصد من ذلك مقصدٌ شرعي صحيح، وطالما أنَّ ما يدعون إليها متوافق مع روح الشريعة الإسلامية. إرجاء الهدف المقدور في فرصة تكثر فيها الخسائر مع هشاشة المكاسب، إلى فرصة تقل فيها الخسائر وتعظم المكاسب.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية (ج ٣ / ٢٦٩ ص).

● لا تفاوض ناجح إلا بتجميع أوراق القوة

«لما نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديبية فَرَعَتْ قُرَيْشٌ لِنُزُولِهِ عَلَيْهِمْ، فَأَحَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لِيَبْعَثَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ لِي بِمَكَّةَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي كَعْبٍ يَغْضِبُ لِي إِنْ أُذِيتُ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَإِنَّ عَشِيرَتَهُ بِهَا، وَإِنَّهُ مُبْلَغٌ مَا أَرَدْتُ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَأَرْسَلَهُ إِلَى قُرَيْشٍ وَقَالَ: أَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا عُمَارًا»^(١).

لكن على الرغم من رسائل التهدئة والسلام التي أرسلها إلى قريش كان لابد من رسائل القوة وتجميع الأوراق العسكرية، فبعد أن «بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ، فَدَعَا إِلَى الْبَيْعَةِ، فَتَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْأَلَا يَفِرُّوْا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ نَفْسِهِ وَقَالَ: (هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ)»^(٢).

(١) زاد المعاد (٣/ج) ص ٢٥٨.

(٢) المرجع السابق (٣/ج) ص ٢٦٩.

وبذلك أعطى رسول الله رسالة واضحة أن بعث عثمان ليكون رسول سلام لا ينبع عن ضعف وإنما عن رغبة حقيقية في الصلح والسلام وإن كان لابد من خيار الحرب فإن المسلمين جاهزون لها.

دور القيادة المتوازنة في إدارة التحولات السياسية وصناعة القرار السياسي

قبل أخذ القرار كان لابد من تهيئة الصحابة لتقبله، فلما حرنت ناقة النبي قال الصحابة: «لقد حرنت القصواء»، فرد عليهم أن سبب حرونها هو حابس الفيل، يعني كما حبس فيل أبرهة بن الأشرم بوحي من الله حرمة للبيت الحرام.

وهذا فيه نوه من التهيؤ النفسي لتقبل عدم الدخول إلى مكة، وهنا بدأ النبي ببعث عثمان بن عفان ليعرض الصلح على قريش.

وأثناء توقيع الصلح كان النبي لا ينساق وراء استفزازات سهيل بن عمرو واستكباره حتى ينجز الاتفاق، «ولما فُرعَ من

قضية الكتاب، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا)، فَمَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ قَامَ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَجِبُ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُذْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَقَامَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ بُذْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا»^(١).

وهكذا استطاع رسول الله بحكمته أن يحشد أصحابه خلفه في قراراتها السياسية، فلم يحصل من خلاف في الآراء، ولا انشقاق بين الصفوف، رغم حجم التنازلات التي رآها الصحابة، ووصفها عمر بن الخطاب بإعطاء الدنيا والذل.

(١) زاد المعاد (ج ٣/ ص ٢٦٣).

المبحث الثاني

إدارة التفاوض والخطاب السياسي

● (١) التعامل مع الرسول الأول عروة بن مسعود الثقفي

جاء الرسول الأول من قريش وهو عروة بن مسعود الثقفي رجل يؤخذ بمظاهر القوة محاولاً الرمي بالفتنة بين المسلمين، فلما رجع عُرْوَةُ بن مسعود الثقفي إلى أَصْحَابِهِ، فقال: أَيُّ قَوْمٍ، والله لقد وَفَدْتُ على المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ على قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، والله إِن رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا، والله إِن تَنَخَّمْ نَخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهُهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ على وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةً رُشِدٍ فَاقْبَلُوهَا.

لقد كانت حكمة أصحاب رسول الله واضحة في إعطاء الصورة المناسبة لعروة، وبذلك تحول عروة بن مسعود الثقفي من رسول لقريش يحاول إيهان عزيمة المسلمين وإيقاع الفتنة بينهم عندما قال لرسول الله «ما أرى معك إلا أوباشًا يوشكوا أن يفروا ويتركوك»، ومحاولًا بث كلمة الفرقة بينهم، عندما قال أمام الصحابة: «هل أتيت لتستأصل أهلك يا محمد، ما سمعنا أن أحدًا فعله من العرب قبلك»، لكن بعد أن رأى مظاهر الإجلال والتوقير من الصحابة للقيادة النبوية تحول عروة إلى رسول لرسول الله، يبيث الحرب النفسية في نفوس قريش، مأخوذًا بصورة الولاء والتعظيم الذي رآه من الصحابة لشخص رسول الله.

● (٢) الرسول الثاني الحليس سيد الأحابيش رجل مثاله

لما أقبل الحليس إلى المسلمين قال رسول الله: (هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له)، فبعثت له، واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء

أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ. فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتَ الْبُذْنَ
 قَدْ قُلِدْتُ وَأُشْعِرْتُ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ. فَلَمَّا رَأَى
 الهدي يسيل عليه من عرض الوادي بقلائده قد حبس عن محله
 رجع ولم يصل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن في مغازي
 عروة عند الحاكم: فصاح الحليس، فقال: هلكت قريش ورب
 الكعبة إن القوم إنما أتوا عُمَارًا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَلُ
 يَا أَخَا بَنِي كِنَانَةَ فَأَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خَاطِبُهُ عَلَى
 بُعْدٍ، قَوْلُهُ: فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ، زَادَ ابْنُ إِسْحَاقَ:
 وَغَضِبَ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ مَا عَلَى هَذَا عَاقِدُنَاكُمْ، أَيُصَدُّ
 عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مَعْظَمًا لَهُ؟ فَقَالُوا: كَفَّ عَنَّا يَا حَلِيسَ حَتَّى
 نَأْخُذَ لَأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى^(١).

وهكذا فهم رسول الله نفسية الحليس وخطابه بالصورة التي
 تؤثر في نفسه، واستطاع أن يفك حلفه ويقنعه بترك التحالف مع
 قريش بهذه الصورة التي رآها الحليس، وبذلك ضمن رسول
 الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحييد الحليس والقوة العسكرية التي معه.

(١) فتح الباري (٥ / ٣٤١، ٣٤٢).

وهنا نستفيد من رسول الله كيف نخاطب العالم من خلال القيم التي يؤمن بها، وليس من خلال الإيديولوجيا التي نؤمن بها فقط، وكيف نحرص على إدارة سمعتنا بين الناس.

● (٣) عدم الوقوف على المسميات والتركيز على الجوهر

عندما جاء سُهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، قال: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا. فَدَعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَاتِبَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، قال سُهِيلُ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ.

فقال المُسْلِمُونَ: والله لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)، ثُمَّ قَالَ: (هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)، فقال سُهِيلُ: والله لو كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (والله إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ).

وهنا نلاحظ كيف تنازل رسول الله عن كتابة بسم الله وكتب باسمك اللهم، ومحا كلمة رسول الله وكتب محمد، ولم يقف عند الاستفزازات والضغط النفسي الذي مارسه سهيل بن عمرو؛ لأنَّ رسول الله كانت عينه على إنجاز جوهر الاتفاق لأنه ينظر جوهر المسألة.

فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (على أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفَ بِهِ)، فقال سُهَيْلٌ: والله لا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ. فقال سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتُهُ إِلَيْنَا.

وهذه الإستراتيجية النبوية العظيمة يتكلم عنها الإستراتيجي روبرت غرين في كتابه ٣٣ إستراتيجية في الحرب، حيث تحدث عن قاعدة (التضحية بالزمان مقابل المكان) وهي سياسة كسب الوقت مقابل أن تبقى محافظاً على الأرض، وهنا نجد إستراتيجية الرسول هي عدم الوقوف عند الزمان، ولم يمانع بالتضحية بسنة كاملة مقابل كسب الإنسان وكسب

المكان، كما حدث في الفتح العظيم، وهنا نلاحظ البون الشاسع مع المراهقين الذين يعملون على حرق المراحل، والذي وصفهم رسول الله بالمنبت.

وهنا قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: (بَلَى)، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: (بَلَى)، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ، وَجَاءَ فِي بَنُو الدِّينِ عَلَى لِسَانِ سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ مَنْ أَتَانَا مِنْ أَصْحَابِكَ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ، وَمَنْ أَتَاكَ مِنْ أَصْحَابِنَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُعْطِيهِمْ هَذَا؟ فَقَالَ: (مَنْ أَتَاهُمْ مِنَّا فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَتَانَا مِنْهُمْ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهِمْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فَرْجًا وَمَخْرَجًا)^(١).

وهنا يتأكد الفهم النبوي الأعمق لمعنى الكسب والخسارة، ونفي الدنية عما وافق عليه المسلمون، فما رآه عمر إعطاءً للدنية كان في جوهره الثقة التامة بأصحابه وعدم ثقة سهيل

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية (ص ٢٦٦ / ج ٣) ط مؤسسة الرسالة رقم ٢٧.



بن عمرو بأصحابه، وهذا ما حدث فعلاً، فلم يُسجل أن أي فرد من أصحاب رسول الله أن التحق بقريش، بينما سُجل التحاق العشرات من شباب قريش بالمسلمين وشكلوا كتيبة مقاتلة في منطقة سيف البحر، وبدأوا بشن حرب العصابات ضد قوافل قريش بقيادة أبي بصير وأبي جندل، إلى درجة أن قريش أرسلت لرسول الله تتنازل عن شرط عدم إيوائهم، وتطلب من رسول الله أن يضمهم إليه.

المبحث الثالث

الرؤية الاستراتيجية النبوية في صلح الحديبية

إن من أوضح ما يبين لنا الرؤية الإستراتيجية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو التمييز بين المكسب السياسي الصلب والمكسب السياسي الهش، فعندما انتهى الأمر بتوقيع معاهدة صلح مع سُهيل بن عمرو، رأى فيها بعض الصحابة شروطاً مُجْحِفَةً في حق المسلمين، واعتبرها عمرُ بنُ الخطاب في حينها إعطاءً للدنية، وقَفَلَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائداً إلى المدينة، وقد أمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا، فتثاقلوا في الأمر حتى فعل أمامهم.

وتأخر الفتحُ ثلاث سنوات بعد المعاهدة، وقد علل البيان الرباني الخسائر المحتملة لو تم الفتحُ والقتال في حينها؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّآ تَعْلَمُونَهُمْ أَن تَطَّوُّهُمْ فَتَضِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

وجواب (لولا) في الآية محل البحث غير مذكور، ولكنه يدل من السياق والسباق عليها، أي لولا وجود هؤلاء لما كف الله تعالى أيديكم وأيديهم عن القتال، الذي كان سينتهي حتماً بانتصار المسلمين كما في الآية السابقة عليهما ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَرُ ثُمَّ لَا يُحْدِثُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢].

فيكون معنى الآية: أنه لولا وجود رجال مؤمنين، ونساء مؤمنات، ما زالوا يقيمون بين المشركين يُخَفُونَ إسلامهم تُقِيَّةً واستضعافاً، أو لمصالح معينة؛ لكونهم عيوناً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على المشركين وأنتم لا تعرفونهم، لأوقع الله تعالى القتال بينكم وبين قريش، وقد اقتحمت عليهم ديارهم والنصر لكم، لكن الله تعالى كفَّ أيديكم وأيديهم عن القتال، حمايةً لكم ولأولئك المؤمنين؛ لأنكم بسبب جهلكم بهم فيخشى عليكم من إصابتهم بقتلٍ، أو جرحٍ فتصيبكم بسبب

ذلك (معرة)، أي: ضررٌ وعارٌ في الدنيا أو الآخرة؛ لأنّ المشركين سيعيرون المسلمين، ويقولون: إنّ هؤلاء مجرمون قساةٌ لم يرحموا حتى جماعتهم المؤمنين، وسيقولون أيضًا أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يُراعِ حرمة بيت الله الآمن، فقاتل على أرض الحرم.

ولو تزيل هؤلاء المؤمنون، أي: انفصلوا، وتباينوا عن مجتمع المشركين لوقع العقاب على الكافرين خاصة ﴿لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من دون محذور، كما أنّ الفريقين متزايلون يوم القيامة، فيحلّ العذاب بالكافرين.

والغرض الآخر الذي لُوْحِظَ في تجنب القتال، وكفّ الأيدي عنه، هو قوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: لإعطاء مزيد من الوقت، والفرصة حتى يخرج المؤمنون من وَسْطِ قريش، ويأووا إلى كهف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرحيم، أو حتى يهتدي من يشاء الله من هؤلاء المشركين والمعاندين، وهؤلاء لا تعرفون عنهم شيئاً

أكيداً، فلو تزيل هؤلاء، أي: تحقق الغرض بهداية من يُريد الله تعالى هدايته، وانفصالهم عن المشركين لعذبنا الذي كفروا، فالكفُّ عن القتال يحقق مصلحتين:

١- دفعُ الخطر عن المؤمنين غيرِ المعروفين، ودفعُ المعرة عن المسلمين. (المفسدة المحتملة).

٢- إعطاءُ الفرصة لهداية المزيد من الأعداء للإيمان. (المصلحة المتحققة).

لذلك سَمَى الله تعالى الحديبيةَ فتحًا، فجاء في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، وكان من تجليات هذا الفتح الفتوحات الكبرى التي حصلت بعده، وهذا ما أشار إليه الله سُبحانه وتعالى في سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾.

فدخول الناس في دين الله أفوجًا، ما كان ليتِمَّ لولا صلحُ الحديبية، وما كان بعدها من عمرة القضاء، ولو دخل عليهم رسول الله بقتالٍ لكانت الغلبة والنصر للمسلمين، ولكن حتى

لا تفنى قريش عن بكرة أبيهم، مع هلاك من يستخفي بإيمانه من
المُستضعفين المسلمين الذين لم يُهاجروا من مكة إلى مدينة.
لذلك قضت حكمةُ الله تعالى إرجاءَ الفتح - مع أنه هدفٌ
مقدور عليه في حينها - إلى ثلاثِ سنواتٍ حتى لا تقع المعرة
بقتل مسلمين مستخفين بإيمانهم، ولكي تفتح قلوب قريش
للإسلام، فتضاعف عدد المسلمين من الحديدية إلى الفتح
عشرة أضعاف، ودخلوا مكة بدون قتال وخسائر فأسلموا عن
بكرة أبيهم.^(١)

ولكم أن تتصوروا الفرق بين الهدى الإلهي للإدارة السياسية
في منع الفتح حفظاً للأرواح وبين من يفجر بالمسلمين
مساجدهم قياساً على مسائل التتروس ويقول يحشرون
على نياتهم.

(١) راجع كتاب قواعد العمل السياسي، للدكتور جاسم سلطان، مشروع
النهضة الكتاب رقم ٦.



إن هذه النظرة الإستراتيجية للنبي ﷺ في مقايضة الإنسان بالمكان تذكرنا بإستراتيجيات روبرت غرين عندما يتحدث في الإستراتيجية رقم ١١ (قايض الزمان بالمكان) أي تنازل عن الجغرافيا مقابل كسب الوقت، لكن هنا يتجه النبي ﷺ لما هو أرقى وهو كسب الإنسان وتأجيل كسب الجغرافيا والوقت.

المبحث الرابع

فوائد يمكن إسقاطها على العلاقات الدولية في عصرنا

● (١) توقيت مدة الصلح هل هي وقفية أم تابعة للمصلحة

تعرف الهدنة: بأنها الاتفاق على ترك القتال مدة معينة
بعوض أو بغير عوض، وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة
ومصالحة ومسالمة.^(١)

اختلف الفقهاء في ذلك:

١ - فيرى الحنفية والمالكية وهو رواية عن أحمد أن الهدنة
تجوز بالمدة التي يرى الإمام فيها مصلحة ولو زادت عن
عشر سنين، لأنه عقد يجوز في العشر فجاز على الزيادة عليها

(١) الفقه الميسر: (٢٤٣/٧) أ. د. عبد الله بن محمد الطيّار، أ. د. عبد الله
بن محمد المطلق، د. محمد بن إبراهيم الموسى، الناشر: مدار الوطن
للنشر، الرياض - الطبعة: ج ٧ و ١١ - ١٣: الأولى ١٤٣٢ / ٢٠١١.

كعقد الإجارة، فإن المصلحة قد تكون في الصلح أكثر منها في الحرب.

٢- ويرى الشافعية وهو رواية عن أحمد أن الهدنة تجوز إلى عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها.

٣- والراجح: القول الأول: قال ابن القيم: «يجوز صلح أهل الحرب على وضع القتال عشر سنين ويجوز فوقها للحاجة والمصلحة الراجحة»^(١).

وهنا يمكن أن نؤكد أن تأقيت مدة الصلح بعشر سنوات كحد معين بالنص لا يجوز تجاوزه هو قول ضعيف، وهنا يمكن أن نؤسس حالة من السلام العالمي بناء على المجال المفتوح للهدن واتفاقيات الصلح في العهود والمواثيق الدولية التي تؤسس لعلاقة السلام باتفاقات ومعاهدات تكتسب صفة الديمومة.

(١) توضح الأحكام لابن بسام (٦/ ٤١٠).

● (٢) التفريق بين العقد السياسي والعقد الإيمانية

تكاد تكون قيمة الوفاء بالعقود من أهم القيم الأخلاقية والسياسية الكبرى في الإسلام، وذلك لأسباب كثيرة منها: أنَّ ولادة الدولة في الإسلام هي من منشآت العقد السياسي الحرِّ بين الأطراف المتساكنة في هذه الدولة، وليست وليدة الأيديولوجيا كما يحسب البعض من التيارات الإسلامية، أو وليدة السيطرة والتغلب، فكثيراً ما يقع اللبس عند البعض في مباحث الولاء والبراء؛ حين يخلطون بين التعاقد السياسي مع الدولة الإسلامية، وبين التعاقد الإيماني مع الأمة الإسلامية، وينزلون العقدين بمنزلة واحدة.

والحقيقة أنَّ الدخول في التعاقد الإيماني مع المسلمين كأمة وملة، لا يلزم منه الدخول في التعاقد السياسي تضميناً أو تلقائياً مع دولة المسلمين كشرط لازم له لا ينفك عنه؛ لأنَّ التعاقد الإيماني يعني: أنَّ المتعاقد قد دخل في الإسلام كدينٍ والتزم بواجبه وفرائضه، ولا يُشترطُ من ذلك دخوله في العقد

السياسي كفرد من رعية الدولة والخضوع لسلطانها، ولا يُشترط العقد الإيماني عليه أن يلتحق سياسياً بجماعة المسلمين ليُصبح إيمانه صحيحاً مكتملاً، فقد يدخل الكثير من الناس في العقد الإيماني، وهم خارج جغرافيا دولة الإسلام.

أما التعاقد السياسي فهو تعاقد على العيش في دولة الإسلام، والخضوع لأنظمتها، والالتزام بحربها وسلمها في شكل معاهدات الدفاع المشترك، أو الحماية أو الدخول في رعايتها وعقدها السياسي، وقد يكون هذا المُتعاقد ليس بمسلم أصلاً، ولم يدخل في عقدهم الإيماني من الأساس، وهذا لا يمنعه أن يدخل في عقدهم السياسي أبداً، فكثير من غير المسلمين قد يُكوّنون جزءاً من مكونات الدولة الإسلامية، ويسكنون داخل حدودها، وهم لا يدينون بالإسلام أصلاً.

وهذا المعنى يتضح جلياً في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْزَعُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ومن هنا نجد: أن البيان الرباني لم يحدد الهجرة كفعل ضروري، ومؤشرٍ على الدخول في العقد السياسي للدولة، وعدم الإتيان به لا ينفي عن صاحبه حكم الإسلام والإيمان، وقد أورد الشيخ السعدي في تفسيره معنىً دقيقاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: لأجل قتال مَنْ قاتلهم لأجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم، كأن يكون المسلمون هم من باشر الاعتداء والظُّلم فلا حق لهم بالنصرة^(١).

من هذه المعاني نجد: أنَّ القرآن الكريم يُؤصل تأصيلاً واضحاً للفصل الواضح بين مقتضيات التعاقد الإيماني، ومقتضيات التعاقد السياسي، وقد كان لهذه القضية تطبيقاتٌ عملية في التصرفات السياسية لرسول الله يوم الحديبية، فمن الشروط التي وردت في هذا الصلح نذكر بندين وردا في هذه المعاهدة:

(١) تفسير الشيخ السعدي (ج ١ ص ١٩٦) المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

البند الأول:

إرجاع المسلمين لكل شخص يأتي إليهم من قريش مسلماً بغير إذن قريش، ولكن لا ترد قريش من يعود إليها من المسلمين، إن جاء مرتدًا عن الإسلام.

فبعد الانتهاء من كتابة وثيقة الصلح والمعاهدة، جاء أبو جندل بن سُهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في قيوده هاربًا من المشركين في مكة، فقام إليه أبوه - سُهيل - فضربه في وجهه، وقال: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فأعاده النبي للمشركين، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرّدُ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فقال له النبي: (إنّا عقدنا بيننا وبين القوم عهدًا، وإنّا لا نغدر بهم)، في هذا السياق يتضح تمامًا أن أبا جندل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يدخل العقد السياسي مع المسلمين، بناءً على التزام رسول الله بنود صلح الحديبية، وهذا لا ينفي عن أبي جندل دخوله في العقد الإيماني، وكونه مسلمًا مؤمنًا بالله ورسوله.

أما البند الثاني الذي ورد في الحديبية:

حرية دخول أي شخص أو قبيلة في عهد قريش، أو عهد النبي محمد ﷺ، وهنا قامت بنو خزاعة وقالوا: نحن في عقد محمد، وقام بنو بكر وقالوا: نحن في عهد قريش، وكان بنو خزاعة على الشرك والكفر في غالبيتهم، وهذا دليل آخر من سيرة رسول الله.. على افتكاك التعاقد السياسي عن التعاقد الإيماني مرة أخرى، فخزاعة قبيلة مازالت على الشرك والكفر، ولم تكن تسكن المدينة، ولم يكن في ذلك مانع من دخولهم في عقد الولاء السياسي من النصر والمظاهرة عند الاعتداء عليهم، بينما منع أبو جندل - وهو على الإسلام والإيمان - من الدخول في هذا العقد^(١).

وفي بيعة العقبة الثانية بين رسول الله.. وبين الأنصار، جاء فيها بنود تتعلق بالتعاقد السياسي، فكانت بيعة سياسية بامتياز،

(١) انظر للتفصيل زاد المعاد (ج ٣ / ص ٢٥٥ - ٢٦٢) الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.

بينما كانت بيعة العقبة الأولى بيعةً دينيةً إيمانيةً فقط، فقد جاء في نص بيعة العقبة الثانية قول الأنصار: «يا رسول الله! على ما نبايعك؟ فقال: بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب؛ تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة»^(١).

في هذا العقد الإيماني والسياسي يتضح فيه تقيد الحماية والنصرة حال هجرة رسول الله إليهم، فإنهم عندئذٍ يحمونه في داخل يثرب فقط.

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٧٧٣٥) المحقق: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

لذلك نجد رسول الله يوم بدر لا يخرج عن مقتضى العقد السياسي، بدون إذنٍ من الأنصار، فقال يوم بدر: أشيروا عليَّ أيُّها الناس. وقام عدد من الصحابة فتكلموا، وتكلموا خيراً، ثم وقف سعد بن معاذ زعيم الأنصار، وقال: والله، لكأنَّكَ تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، قال: قد آمنا بك، وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السَّمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصَبِرٌ في الحرب، صُدِّقٌ عند اللقاء، ولعلَّ الله يُريك منا ما تقرُّ به عينك، فسرُّ بنا على بركة الله^(١).

وهكذا نرى أنَّ رسول الله لم يفرض على الأنصار معركة بدر خارج حدود المدينة، إلا بعد إذنهم؛ حتى لا يتجاوز بنود

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣ / ص ٣٤) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٠٥ هـ.

العقد والعهد السياسي، الذي أبرم في العقبة الثانية بينه وبين الأنصار، مع أنه رسول الله وطاعته واجبة عليهم.

وهذا يحملنا على إنعام مزيد من النظر والتأمل، في الفصل والتفريق بين مضمون وآثار العقد السياسي، ومضمون وآثار العقد الإيماني، وعدم الخلط بينهما، أو جعلهما في منزلة واحدة، أو من لوازم بعضهما، بحيث لو امتنع أحدهما امتنع الآخر، وعليه فيجب التمييز أيضًا بين الولاء الإيماني والولاء السياسي، وكذلك بين البراء الإيماني من الأشخاص والجماعات وبين البراء السياسي منهم، وهو ما يلتبس على الكثير من الجماعات الإسلامية.

كما نشير إلى مسألة في غاية الخطورة والأهمية، وهي أنَّ شرعة السيف والتغلب، وإن كان مُنشأً للدولة ككيان، لكن لا تمنح الشرعية إلا من خلال التعاقد السياسي الرضائي بين مكونات المجتمع المنضوي تحت نظامها وسلطانها وإقليمها.

٣) الأصل في العلاقات الدولية هو حفظ العهود والمواثيق عند تعارضها مع فروع الشريعة

لتحقيق الاستقرار السياسي والحفاظ على العهود والمواثيق ولو على حساب تنفيذ فروع الشريعة لأن حفظ العهد والميثاق بحد ذاته أصل شرعي وهذا نجده في سياسة النبي لما رجع من الحديبية إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجُلٌ من قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَّغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمَرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا فَاسْتَلِّهِ الْآخَرَ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرْنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَأَمَكَّنَهُ مِنْهُ، فَضْرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَ الْآخَرَ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ رَأَاهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ قَالَ: قَتَلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ - وَاللَّهِ - أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

(قول النبي: «ويل أمه» كلمة ذم تقولها العرب في المدح، ولا يقصدون معنى ما فيها من ذم. وقوله: «مُسْعِر حرب» أي: مشعل نار الحرب مما فعله من قتل الرجل، وقوله: «لو كان له أحد» أي: ينصره ويعاضده ويناصره، وفيه إشارة إليه بالفرار لئلا يرده إلى المشركين، ورمزٌ إلى مَنْ بلغه ذلك من المسلمين المستضعفين في مكة، أن يلحقوا به)، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سِيرُهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَيَنْفَلْتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَفَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلْتُ قُرَيْشًا إِلَى النَّبِيِّ تُنَادِيهِ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أُرْسِلَ فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ إِلَيْهِمْ^(١).

(١) أخرجه البخاري رقم الحديث (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

الخاتمة والنتائج

لقد كان صلح الحديبية فتحًا سياسيًا بكل معنى الكلمة، وحصادًا وفيرًا أكثر من بذاره وذلك بفعل التأييد الإلهي والحكمة السياسية والرؤية الإستراتيجية التي كان رسول الله ينظر من خلالها إلى أفق المستقبل البعيد، لا يقف عند التنازلات الهامشية والخسائر الهشة يرمى المغنم الكبيرة ويمضي إليها بخطى ثابتة واثقة، وكان من جملة هذه المكاسب الإستراتيجية التي لا تقارن أبدًا بالتنازل عن مسمى رسول الله وتأخير العمرة لمدة عام كامل هذه المكاسب.

١ - تحقيق الاعتراف السياسي من قريش

كانت قريش قبل صلح الحديبية تصر على استئصال المسلمين، وشنوا في سبيل ذلك ثلاثة حروب في بدر وأحد والخندق ولم ينجحوا في استئصالهم، واليوم يجلسون مع قريش بندية ويكتبون عقودًا معهم وهذا مؤشر مهم لأهمية تحقيق الاعتراف الدولي بالدولة التي يريد المسلمون إقامتها وإلا حولت إلى دولة معزولة عن العالم.

● ٢- أهمية الاستقرار الأمني والحرية لنشاط الدعوة الإسلامية

لقد أثبت صلح الحديبية أن الإسلام يكسب في أجواء الاستقرار أكثر منه في أجواء الحرب وقد كان صلح الحديبية هو فتح كما سماه الله تعالى في سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، والفتح هنا انتصار الدعوة ودخول الناس في دين الله تعالى كما قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢)، وقد أسلم خلق كثير في هذه المرحلة ويكفي أن نعرف أن عدد المسلمين في صلح الحديبية كانوا قرابة ١٤٠٠، وعندما فتحوا مكة دخلوا بعشرة آلاف وكان ممن أسلم في الفترة ما بين الحديبية والفتح خالد بن الوليد وعمر وبن العاص، وهذا مؤشر مهم لأهمية الاستقرار الأمني وتحقيق شرط التواصل والحرية لتحقيق أهداف الدعوة في البلاغ، وهو ما لا يتحقق أبدًا في حالة الحرب والقتال، وهو ما يجب أن يسعى له المسلمون في هذا العصر من تعزيز أواصر التواصل مع شعوب العالم وبناء أسس السلام المفضي إلى الاستقرار والحرية.

● ٣- الانتقال من المحلية إلى العالمية

في هذه المرحلة التي تحقق فيها السلام والاستقرار استغل رسول الله هذه المرحلة ليكتب ملوك العالم، فكتب إلى هرقل عظيم الروم وكسرى عظيم الفرس، والمقوقس عظيم القبط وغيره من زعماء العالم وصار الحديث بدعوة رسول الله يدخل قصور ملوك العالم، وهذا مؤشر مهم على التفاعل مع المحيط الدولي وعدم التقوقع في الحدود المحلية والانكفاء على الذات.

● ٤- أصبح المسلمون قوة تحسب لها حساب

وهذا يتضح في أمرين: في اتجاه عقلاء قريش إلى الصلح ولو كان لديهم من القوة والشوكة لاختاروا الحرب والمفاصلة، وفي دخول قبيلة خزاعة في حلف المسلمين ولم تكن خزاعة يومها على الإسلام.

وهنا ملحظ مهم وهو أن السياسي البارع هو من يتجه لفتح قنوات التواصل والتفاوض وهو في وفرة القوة والشوكة



ويعطي فرصة لخصمه لكي يتجه لتحقيق السلام وليس من
يجنح للسلام وهو منكسر مهزوم فتتحول المفاوضات إلى
باب للهزيمة والاستسلام.